تخريج نصوص أرسطالية
في كتاب الحيوان للجاحظ
للدكتور طه الحاجري

الجزء الرابع

(٢)

٤٦ – قال الجاحظ : « وقال صاحب المنطق : أن الضباع تأكل النمل أكلا ذريعا . وذلك أن الضباع تأتي قرية النمل ، في وقت اجتماع النمل ، فتلحس ذلك النمل بلسانها بشهوة شديدة وارادة قوية[1] »

ولم أجد هذا في كل ما وقفت عليه من كلام أرسطو عن الضبع . وإنما ذكر النمل على أنه طعام للدب في الفصل الثامن من الكتاب السابع من تاريخ الحيوان[2] . ويلاحظ أن حديثه عن الدب في ذلك يقع في عقب حديثه عن الضبع .

٤٧ – قال الجاحظ : « وباب آخر مما ذكر صاحب المنطق ، فزعم أن من الخنازير ماله ظلف واحد[3] » .

وهذا الذي يشير إليه الجاحظ يقع في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، من تاريخ الحيوان ، في سياق كلامه عن أقدام الحيوان ، ماهو مشقوق منها وماهو غير مشقوق ، إذ يقول :

« والخنزير له الهيئتان ، إذ يوجد في إلّيريا Illyrie وفي بيونيا Péonie خنازير ذات ظلف واحد[4] » .

وقد جاء ذلك في الترجمة العربية القديمة مجهولة الصاحب ، الموجودة قطع منها في المتحف البريطاني باسم « معرفة طبائع الحيوان البري والبحري » بهذه الصورة :

« فأما جنس الخنازير فمختلف ، لأنه في البلدة التي تسمى في اليونانية اللوريا ، والتي تسمى بأونيا ، وفي بلدان أخرى ، خنازير ليس لها في كل رجل إلا ظلف واحد[5] » .

(*) انظر الجزء التاسع والعشرين من المجلة .

(١) ج ٤ ، ص ٣٤ .

(٢) v. III, p. 41.

(٣) ج ٤ ، ص ٥٢ .

(٤) v. I, p. 115.

(٥) ورقة ٢٠ – ٢١ .

٤٨ – قال الجاحظ ، بعد النقل السابق عن صاحب المنطق : « قال : والانسان يلقى أسنانه وكذلك الحافر والخف . قال : والخنزير لايلقى أسنانه البتة[١] » .

وقد جاء هذا أكثر تفصيلا ، فى الفصل الثالث من الكتاب الثانى من تاريخ الحيوان، على هذه الصورة : « والإنسان يفقد أسنانه كما تفقدها أيضا حيوانات أخرى ، كالحصان والبغل والحمار ، والإنسان يفقد أسنانه الأمامية ، ولكن ليس هناك حيوان يفقد أضراسه ، والخنزير لايفقد أى سنٍّ من أسنانه[٢] » :

٤٩ – قال الجاحظ – بعد أن استطرد ، على طريقته ، إلى ذكر بعض المعارف العربية والأدبية المتصلة بسقوط الأسنان ، وبموضعها فى بعض الحيوان – : « قال : وليس يجمد مرق لحم الحيوان السمين ، مثل الخنزير والفرس . وأما ماكان كثير الثرب ، فمرقته تجمد ، مثل مرق لحم المعزى[٣] » .

ويقابل هذا النص فى تاريخ الحيوان ، لأرسطو ، ماجاء فى الفصل الثالث عشر من الكتاب الثالث ، حيث جعل الكلام عن دهن الحيوان وشحمه ، من قوله :

« والمرق الذى يتخذ من الحيوان السمين لايجمد ، مثل الفرس والخنزير ، وعلى العكس من ذلك المرق المتخذ من لحم الحيوان ذى الشحم ، فانه يجمد ، مثل مرق الضأن والمعزى[٤] » :

ومقارنة النصين تثبت من الاتفاق بينهما مالايدع شكا فى أن مرجع الضمير فى كلمة « قال » عند الجاحظ هو صاحب المنطق :

٥٠ – قال الجاحظ ، فى عقب النص السابق : « قال : والخنزير الذكر يقاتل فى زمن الهيج ، فلا يدع خنزيرا إلا قتله ، ويدنو من الشجرة ويدلّك جلده ثم يذهب إلى الطين والحمأة فيتلطخ به ، فاذا تساقط عاد فيه :

قال : وذكورة الخنازير تطرد الذكورة عن الإناث ، وربما قتل أحدهما صاحبه ، وربما هلكا جميعا ، وكذلك الثيران والكباش والتيوس فى أقاطيعها ، وهى قبل ذلك الزمان متسالمة . والجمل فى تلك الحالة لايدع جملا ولا انسانا يدنو من هجمته : والجمل خاصة يكره قرب الفرس ويقاتله أبدا . ومثل هذا يعرض للذئبة والذئب : والأسد ليس ذلك من صفاتها ، لأن بعضها لايأوى إلى بعض ، بل ينفرد كل واحد بلبوئته . وإذا كان للذئبة الأنثى جراء ساءت أخلاقها وصعبت ، وكذلك إناث الخيل والفيل : يسوء خلقها فى ذلك الزمان »

(١) ج ٤ ، ص ٥٢ .
(٢) v. I, p. 129.
(٣) ج ٤ ، ص ٥٣ .
(٤) v. I, p. 288.

والفيّالون يحمونها النزو ، لأنها إذا نزت جهلت جهلا شديدا ، واعتراها هيج لايقام له . وإذا كان ذلك الزمان أجادوا عقله ، وأرسلوه فى الفيلة الوحشية . فأما الخنزير والكلب فإنهما لايجهلان على الناس لمكان الألفة .

قال : وزعم بعض الناس أن إناث الخيل تمتلئ ريحا فى زمان هيجها ، فلا يباعدون الذكورة عنها ، وإذا اعتراها ذلك ركضت ركضا شديدا ، ثم لاتأخذ غربا ولا شرقا ، بل تأخذ فى الشمال والجنوب ، ويعرض مثل هذا العرض لإناث الخنازير ؛ فاذا كان زمن هياج الخنازير ، تطأطئ رءوسها ، وتحرك أذنابها تحريكا متتابعا ، وتتغير أصواتها إذا طلبت السفاد ؛ وإذا طلبت الخنزيرة السفاد بالت بولا متتابعا[1] » .

ويقع نظير هذا القول عند أرسطو فى الفصل السابع عشر من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان ، بعد مقدمة قصيرة أشار فيها إلى ماذكره قبل عن سفاد الحيوانات البيوضة ، لينتقل إلى الكلام عن سفاد الحيوانات الولودة ، وبعد أن نبه إلى ملاحظة عامة ، وهى أن السفاد يثير عند الحيوان جميعه رغبة عارمة ، ولذة كبرى ، فى الاستسلام له ؛ وأن الأنثى فى حملها الأول لاتكاد تطاق ، وكذلك الذكر فى أوان السفاد ، وأن الخيل مثلا يعض حينئذ بعضها بعضا ، وتصرع فرسانها ، قال :

« والخنازير الوحشية تصير فى ذلك الوقت غاية فى العنف ، بالرغم من أن السفاد ينهكها كثيرا ، فينصرف بعضها إلى قتال بعض قتالا فظيعا ، وقد تدرعت له مقدما ، وهيأت جلدها ليكون أقسى مايمكن وأغلظ ؛ إذ تحتك بالأشجار وتتمرغ فى الوحل مرارا كثيرة ، ثم تدع الوحل يجف عليها ، ثم تقتتل بكثير من الحدة حين تخرج من بيوتها ، حتى ليحدث كثيرا أن يموت المتقاتلان معا . وليست الثيران والكباش والتيوس أقل من هذا ثورانا ، وقد كانت تحيا أول الأمر متسالمة فى مرعى واحد ؛ فاذا كان وقت السفاد افترقت وأخذت فى قتال عنيف . بل إن الجمل نفسه يصبح فى ذلك الوقت صعب القياد ، ولا يعود يطيق اقتراب انسان ولا جمل آخر . وأما الفرس فمعروف أن الجمل فى خصام دائم معه .

وتخضع الوحوش لهذه التأثيرات . فالدببة والذئاب والأسود تنفر ، فى ذلك الوقت ، من كل من يقترب منها . أكثر مما تفعل فى أى وقت آخر . وإذا كان قتالها بعضها بعضا أقل من غيرها ، فذلك لأنها ليست من الحيوانات التى تعيش قطعانا . وإناث الدببة تسوء أخلاقها إذا كان لها صغار ، وكذلك إناث الكلاب ليست أقل منها فى ذلك

(١) ج ٤ ، ص ٥٤ — ٥٥

من أجل جرائها ، والفيلة أيضا تصبح شديدة النفرة فى إبان السفاد . والفيالون فى الهند يعلمون ذلك جيدا ، حتى إنهم ، فيما يقال ، لايتركونها تنزو على الإناث ، لأنها إذ تصبح فى ذلك الوقت مهتاجة تقوض أكواخهم الرديئة البناء ، وتسبب لهم كثيرا من الخسائر. ويقال إن من الممكن تهدئتها بتقديم طعام موفور لها ، كما يجعل إلى جانبها فيلة أخرى تذللها وتخضعها ، وقد علـّمت كيف تضربها لترويضها . والحيوانات التى تستطيع أن تتسافد فى أكثر الأحيان ، دون ارتباط بفصل معين ، وعلى سبيل المثال الحيوانات التى تعيش مع الإنسان ، كالخنازير والكلاب ، أقل خضوعا لهذه الانفعالات ، كما هو واضح ، بسبب غلبة تدانيها . . . . . ويقال إن إناث الخيل تهيجها الريح فى تلك الفترة ، وهذا هو الذى يجعلهم فى جزيرة كريت لا يمنعونها من أن ينزى عليها فإذا نزى أخذت فى الابتعاد عن سائر الخيل . ويقال إذ ذاك إن لديها داء هياج الخنازير ، من أجل أنه يصيب إناث الخنازير البرية . وهى لاتجرى (فى ابتعادها) نحو الشرق ولا نحو الغرب ، وإنما تجرى دائما نحو الشمال والجنوب . . . وفى أوقات السفاد تحنو الأفراس بعضها على بعض أكثر مما تفعل عادة ، وتحرك أذنابها فى كل لحظة ، ويتغير صوتها تغيراً شديداً عن صوتها فى غير ذلك الوقت . وكذلك يسيل من أعضائها التناسلية سائل يشبه منى الذكور ، ولكنه أخف منه كثيراً . . . وتبول الأفراس بولا كثيراً متتابعا عند ما تكون مهتاجة quand elles sont en chaleur [1].

والنصان ، فيما نرى ، يتفقان فى معظم المعانى والعبارات ، وإن كانا يختلفان ، بطبيعة الحال ، فى بعض المواضع . والأمر فى ذلك يرجع — كما قلنا غير مرة — إلى الحالات التى تعرض لها النص هنا وهناك . وقد يرجع إلى ما فى النص اليونانى من غموض تختلف فى تبينه وتأويله الأفهام ، كما نرى فى هذه العبارة من النص الجاحظى : « وزعم بعض الناس أن إناث الخيل تمتلئ ريحا فى زمان هيجها » . فالمعنى غامض . وحين عبر المترجم الفرنسى عن ذلك باهتياج الريح لها قال فى تعليقه : إن الكلمة اليونانية غير واضحة تماما ، وأنه غير واثق من المعنى الذى اختاره لها ، كما ذكر أن أوبرت وفيمر Aubert et Wimmer قد جعلا ترجمة هذه العبارة هكذا : « ويقال إن إناث الخيل تكون فى ذلك الوقت منتفخة Aufgelaht, gonflées .

وهذه الترجمة ، كما هو ظاهر ، أقرب إلى الترجمة العربية . إلى غير ذلك من المواضع التى أشار سانتيلير إلى غموضها .

---

(١) v. II, p. 339-344.

٥١ – قال الجاحظ ، فى عقب النص السابق : « قال : وإناث الخنازير تحمل أربعة أشهر ، وأكثر ما تحمله عشرون خنوصاً . وإذا وضعت أجراء كثيرة لم تقو على رضاعها وتربيتها . قال : وإناث الخنازير تحمل من نزوة واحدة ، وربما كان من أكثر . وإذا طلبت الذكر لم تنزع حتى تطاوع وتسامح ، وترخى أذنابها ، فاذا فعلت ذلك تكتفى بنزوة واحدة . ويعلف الذكر الشعير فى أوان النزو . ويصلح للأنثى »(١) .

ونظير هذا النص فى تاريخ الحيوان لأرسطو يقع فى الفصل الثامن عشر من الكتاب السادس ، قال :

« والخنزيرة تحمل أربعة أشهر ، وأقصى ما تحمله عشرون صغيرا . إلا أنها حين تضع عدداً كبيرا لا تستطيع تربيته جميعاً . . . وهى تحمل من نزوة واحدة ، ومع ذلك فانه ينبغى أن ينزى عليها أكثر من مرة ، لأنها تلقى بعد النزو ما يسمى أحياناً « كابرى Caprie » . . . وحين تكون الخنزيرة مهتاجة en chaleur يجب ألا يقدم إليها الذكر حالا ، بل يجب الانتظار حتى ترخى آذانها ، فما لم تفعل فانها تكون ما تزال مهتاجة ، فاذا سفدها الذكر وهى فى شدة هيجها ، كفت نزوة واحدة ، كما قلنا . وفى أوان نزو الذكر يحسن أن يعطى الشعير ، ولكن حين تضع الأنثى يجب أن تعطى الشعير المغلى »(٢) .

وإذا كانت الترجمة العربية ، كما أوردها الجاحظ ، قد أغفلت بعض التفصيلات التى جاءت فى الترجمة الفرنسية ، فان النصين يتفقان بعد ذلك إلى حد غير قليل .

على أن مقارنة النصين يمكن أن تظفرنا ببعض النتائج فى تحرير النص العربى ، وفى تحقيق النص اليونانى فى بعض نشراته وترجماته .

فلعلنا بهذه المقارنة نستطيع أن نقترح تصحيح النص العربى فى قوله : « وإذا طلبت الذكر لم تنزع حتى تطاوع وتسامح » فان كلمة « تنزع » نابية لا تكاد تحقق معنى . وأكبر الظن عندنا أنها محرفة عن « لم ينز عليها » ، كما يقتضيه المعنى فى الأصل المترجم إلى الفرنسية . وهو تحريف قريب المأتى .

ومن ناحية أخرى يستطيع النص العربى أن يفصل فى بعض الخلافات التى ثارت حول النص اليونانى ، فى بعض أصوله . وذلك فى قوله : « وإناث الخنازير تحمل من نزوة واحدة » ، فقد ذكر سانتيلير فى هوامش ترجمته أن القراءة الشائعة تذهب إلى عكس ذلك ، فهى تجعل هذه الجملة فى صيغة النفى ، وقد جاءت كذلك فى بعض المخطوطات ، وقبل هذه الصيغة بعض الناشرين ، فيكون

(١) ج ٤ ، ص ٥٥ .

(٢) v. 11, p. 250-251

المعنى على ذلك : « وإناث الخنازير لا تحمل من نزوة واحدة » . وهنا نرى النص العربى الجاحظى يرجح قراءة سانتيلير على القراءة الأخرى الشائعة ، ويؤيد رأيه فى أن هذا النفى إنما كان من إقحام بعض من قصد ، بزعمه ، إلى تصحيح النص .

كما تثير هذه المقارنة مسألة أخرى يقف فيها النص العربى موقف الفيصل . فقد اعتبر أوبرت وفيمر العبارات التى تبدأ بقول أرسطو « وحين تكون الخنزيرة مهتاجة . . . » إلى آخر الفصل موضوعة على الأصل ، غير صحيحة النسبة إليه ، كما يذكر ذلك سانتيلير فى حواشيه ، قائلا إنهما يريانها زيادات أقحمتها على النص الأصلى يد غريبة . أما سانتيلير فانه لا يرى ما يزعمانه من التغيير فى النص واضحاً الوضوح الذى يحمله على الذهاب مذهبهما .

ووجود هذه العبارات فى الترجمة العربية التى صدر الجاحظ عنها ، بعضها فى هذا النص وسائرها فى النص التالى ، دليل على وجودها فى مخطوطة أخرى غير المخطوطات المعتمد عليها فى تلك الترجمات الأوربية ، وهى لا ترجع إلى ما قبل القرن العاشر للميلاد .

٥٢ ــ قال الجاحظ : « قال : ومتى قلعت العين الواحدة من الخنزير هلك ، وكثير من الخنازير تبقى خمسة عشر عاماً »(١) .

وإذا كان هذا النص يقع ، فى حيوان الجاحظ ، مفصولا عما قبله بفقرة عن مدد حمل بعض الحيوان ، فنظيره فى تاريخ الحيوان لأرسطو متصل بنظير ما قبله ، وبه يتم الفصل الثامن عشر من الكتاب السادس . قال :

« ويؤكد بعض الأشخاص أن الخنزيرة إذا فقدت إحدى عينيها فإنها عادة تموت موتاً عاجلا ، ولكن إناث الخنازير تصل ، بصفة عامة ، إلى خمسة عشر عاماً تقريباً ، وبعضها يصل إلى نحو العشرين »(٢) .

٥٣ ــ وهذا النص الذى نورده فى هذه الفقرة يجئ فى حيوان الجاحظ متصلا بالنص السابق ، كأنه تتمة له ، وليس كذلك عند مقارنته بنظيره فى تاريخ الحيوان لأرسطو ، كما جاء النص السابق منفصلا عما قبله ، وهو متصل به واستمرار له . وربما كان مسبوقاً بكلمة « قال » فسقطت :

قال الجاحظ : « والخنزير ينزو إذا تم له ثمانية أشهر ، والأنثى تريد الذكر إذا تمت لها ستة أشهر . وفى بعض البلدان ينزو إذا تم له أربعة أشهر ، والخنزيرة إذا تمت لها ستة أشهر ، ولكن أولاد هما لا تجئ كما يريدون . وأجود النزو أن يكون ذلك منه وهو ابن عشرة أشهر إلى ثلاث سنين »(٣) .

(١) ج ٤ ، ص ٥٦ .

(٢) v. 11 , p. 351-52.

(٣) ج ٤ ، ص ٥٦ .

ويرجع هذا عند أرسطو إلى الفصل الثانى عشر من الكتاب الخامس ، من تاريخ الحيوان . قال :

« ويمكن أن يتسافد الخنزير ، الذكر والأنثى منه ، لثمانية أشهر ، فتلد الأنثى لسنة ، لأنه بذلك تنتهى مدة الحمل . والواقع أن الذكر يستطيع أن ينزو لثمانية أشهر ، ولكن صغاره تكون ضعافاً جدا إذا هو نزا قبل أن يبلغ تمام عامه الأول . وفوق هذا فان وقت السفاد ليس واحدا – كما قلنا – فى كل مكان ففى بعض البلاد يستطيع الذكر والأنثى أن يتسافدا لأربعة أشهر ، وإذن فهما يستطيعان أن ينتجا ويربيا صغارهما لستة أشهر . وفى أماكن أخرى تبدأ الخنازير النزو فى الشهر العاشر ، وتكون أقوى ما تكون إلى السنة الثالثة »[1] .

وإذا كان النصان يختلفان هنا فى غير موضع ، فلا ينبغى أن يغيب عنا ما فى نص سانتيلير من اضطراب وتناقض لم يملك إلا أن يشير إليه فى حواشيه . فبينما يفهم من صدر النص أن مدة حمل الخنزيرة أربعة أشهر ، إذ تسفد لثمانية وتلد لسنة ، نراه بعد ذلك يجعل مدة حملها شهرين ، حين يذكر أنها قد تسفد لأربعة أشهر وتلد لستة أشهر . فلا بد أن تكون عبارة أرسطو قد تعرضت لشىء من التشويه والتحريف ، حتى جاءت على هذه الصورة المضطربة المتناقضة .

٥٤ – قال الجاحظ : « وقال صاحب المنطق : لا يكون خنزير ولا أيّل بحريا . وذكر أن خنازير بعض البلدان يكون لها ظلف واحد ؛ ولا يكون بأرض نهاوند حمار ، لشدة برد الموضع ، ولأن الحمار صرد »[2] .

فأما الفقرة الأولى من هذا النص فلم أوفق إليها فى تاريخ الحيوان لأرسطو . ومظنتها الفصل الثانى من الكتاب الثامن منه ، وهو الفصل الذى جعله لتقسيم الحيوان إلى برى tezzestre وبحرى aquatique .

وأما الفقرة الثانية فقد تقدم ذكرها ، وذكرنا موضعها فى أرسطو ، فى النص رقم ٤٧ .

وأما الفقرة الثالثة فتجىء الإشارة إلى موضوعها فى الفصل السابع والعشرين من الكتاب الثامن من تاريخ الحيوان ، وهو الفصل الذى يتحدث فيه عن أثر الجو فى تكوين الحيوان ، ويمضى فى هذا الحديث حتى يذكر أنه من أجل ذلك كانت الحمير فى إيليريا وتراقيا وإبيريا صغيرة الجثة ، « وحتى لم يعد هناك حمير فى سكيثيا وفى بلاد الكلت ، لأن هذا الحيوان لا يحتمل البرد »[3] .

---

(١) v. 11, p. 166.

(٢) ج ٤ ، ص ١٠٦ .

(٣) v. III, P. 117.

ومن البين أن كلمة « نهاوند » فى النص العربى ، وهى اسم مدينة من مدن الجبال ، وضعت موضع هذه الأسماء الغريبة بالقياس إلى القارىءالعربى . ولا أدرى إن كان ذلك نوعاً من التصرف فى الترجمة ، مما يلجأ إليه بعض المترجمين أحياناً ، أم هو من صنع بعض النساخ .

٥٥ — قال الجاحظ ، عقب النص السابق : « وقال : فى أرض كذا وكذا لا يكون بها شىء من الخلد ، وإن نقله إنسان إليها لم يحفر ولم يتخذ بها بيتاً . وفى الجزيرة التى تسمى صقلية لا يكون مها صنف من النمل الذى يسمى أقرشان »[١] .

ويقع نظير هذا النص فى الفصل الذى ترجع إليه الفقرة الأخيرة السابقة ، قبلها ببضع فقرات . ونراه هنالك على هذا النحو :

« فى بيوتيا Béotie يوجد كثير من الخلد taupes فى ضواحى أركومين Archoméne ، بينما هو لا يوجد فى ليباديا Lébadie ، وهى جد قريبة . وإذا نقل إليها لم يحفر فى أرضها . . . وفى صقلية لا يرى النمل الفرسان fourmies-cavalières »[٢] .

والنصان متقاربان إلى حد غير قليل . والكناية عن أسماء البلاد التى ذكرها أرسطو بكذا وكذا ربما كانت من عمل المترجم أو صنيع الجاحظ . أما كلمة « أقرشان » (أو أفرشان بالفاء فى نسخة أخرى) على أنها اسم للنمل الذى يسميه أرسطو النمل الفرسان ، فالمتبادر أنها محرفة عن كلمة « الفرسان » ، كما تقتضيه التسمية اليونانية .

٥٦ — قال الجاحظ : « قال : ويعرض لفراخ الحيات مثل الذى يعرض لفراخ الخطاطيف . فان نازعاً لو نزع عيون فراخ الخطاطيف وفراخ الحيات لعادت بصيرة »[٣] .

ويقع نظير هذا النص فى الفصل الثانى عشر من الكتاب الثانى من تاريخ الحيوان . وذلك إذ يقول :

« ويؤكد بعض الأشخاص أن الحيات تقدم نفس الظاهرة التى لفراخ الخطاطيف . ذلك أن عيون الحيات إذا نزعت تعود ثانية »[٤] .

والاتفاق بين النصين لا يدع مجالا للشك فى أن فاعل الفعل « قال » عند الجاحظ هو صاحب المنطق ، وإن أسقطه الناسخ أوسها عن ذكره الجاحظ .

وبين أيدينا ما جاء فى هذا الموضع فى الترجمة العربية القديمة التى أشرنا إليها من قبل . وهى لا تختلف عنهما إلا فى بعض التفصيلات الصغيرة . وها هى ذى :

« وقد زعم بعض الناس أنه يعرض للحيات مثل العرض الذى يعرض لفراخ الخطاف .

---

(١) ج ٤ ، ص ١٠٦ .

(٢) v.III, p. 115.

(٣) ج ٤ ، ص ١٤٣ .

(٤) v. I, p. 190.

وأنه إن نخس أحد عينيها بإبرة أو شيء آخر حاد أعماها نبتت (؟) أيضاً (. . . . ؟) . وتعود أعينها إلى الصحة ، كما كانت أولا »[1] .

٥٧ ـ قال الجاحظ : « وزعم أن السلحفاة والرق والضفدع مما لا بد له من التنفس ، ولا بد لها من مفارقة الماء ؛ وأنها تبيض وتكتسب الطعم وهى خارجة من الماء ، وذلك للنسب الذى بينها وبين الضب ، وإن كان هذا برياً وهذا بحرياً »[2] .

وترجع هذه العبارة المحكية بالمعنى العام ، لا بالنص ، فيما نحسب ، إلى الفصل الثانى من الكتاب الثامن من تاريخ الحيوان ، حيث يتحدث أرسطو عن تقسيم الحيوان إلى مائى وأرضى ، وذلك إذ يقول إن من بين الحيوانات التى تمشى على الأرض وتتنفس الهواء ، يوجد كثير يأخذ غذاءه من الماء . ثم يقول :

« مثال ذلك السلاحف المسماة سلاحف البحر والتماسيح وأفراس البحر والفقم les phcques ، ومن الحيوانات الأصغر من ذلك سلاحف الأرض والضفادع . كل هذه الحيوانات تختنق إذا ظلت زمناً دون أن تتنفس ، وهى تضع صغارها وتربيها على الأرض اليابسة »[3] .

فاذا صح ذلك كان صاحب الزعم هنا ، فيما يقول الجاحظ ، هو صاحب المنطق .

٥٨ ـ قال الجاحظ : وقد زعم صاحب المنطق أن الحية وسام أبرص من العظاء ، والتمساح ، تسكن فى أعشتها الأربعة أشهر الشديدة البرد ، لا تطعم شيئا ، وأن سائر الحيات تسكن بطن الأرض ، فأما الأفاعى فانها تسكن فى صدوع الصخر »[4] .

ونظير هذا النص عند أرسطو يقع فى أول الفصل السابع عشر من الكتاب الثامن ، من تاريخ الحيوان ، إذ يتحدث عن اعتزال الحيوان وتشتيته ، فيقول :

« ومن الحيوانات ذوات الدم ما ينزوى ويعتزل ، كذوات الجلد القشيرى ، مثل الحية وسام أبرص والعظاءة والتمساح النهرى ، فتعتزل أثناء أشهر الشتاء الأربعة الأشد برداً ، ولا تطعم طول هذة المدة شيئا . وسائر الحيات تأوى إلى باطن الأرض ، وأما الأفاعى فانها تختبىء تحت الأحجار »[5] .

والنصان متطابقان ـ كما نرى ـ تطابقا يكاد يكون تاما ، إلا فى وصف الحيوانات بذوات الدم ، مما لم يجىء فى النص العربى . ومع ذلك فقد علق سانتيلير عليه بقوله ، حواشيه : « العبارة غامضة جداً . ولا تعين تعييناً كافياً الحيوانات المذكورة هنا » .

(١) الورقة ٣١ .

(٢) ج ٤ ، ص ١٤٤ .

(٣) v. III, p. q.

(٤) ج ٤ ، ص ١٤٥ .

(٥) v. III, p. 73-74.

وفى المقارنة بين النصين يبدو أن من الممكن اقتراح وضع كلمة : « والعظاءة » بدلا من : « من العظاء » كما هو فى النص المنشور لحيوان الجاحظ ، على أن « من » ليست إلا تصحيفاً للواو . وهو تصحيف قريب . وقد وقع فى موضع آخر من هذا النص ، كما هو ظاهر فى القراءة المثبتة فى الهامش .

٥٩ – قال الجاحظ : « وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان »[١] .

ولم أعثر بعد على هذا القول عند أرسطو .

٦٠ – قال الجاحظ : « ومنها (أى من الحيات) ذوات قرون [وأرسطو ينكر ذلك[٢]] .

والجزء الأخير من هذا النص افترضه الأستاذ الناشر فى موضع البياض من إحدى المخطوطات ، عن الدميرى . وهو افتراض – فيما أرى – مقبول .

وبقى أن نعرف أين جاء إنكار أرسطو أن يكون من الحيات ذوات القرون .

أغلب الظن أن ذلك يرجع إلى ما ذكره عن حيات مصر ، مما عرض له هيرودوت فى كتابه ، فى الفصل الرابع والسبعين من الكتاب الثانى . فقد قال أرسطو فى الفصل الثانى من الكتاب الثانى من تاريخ الحيوان – وهو الفصل الذى جعله للحديث عن بعض صفات الحيوانات ذوات الأربع – :

« وكل الحيوانات ذوات القرون من ذوات الأربع ، إلا بعض حيوانات يقال إن لها قروناً ، على سبيل المجاز أو طريقة الكلام ، كحيات نواحى طيبة التى يذكرها المصريون »[٣] .

أو ما جاء فى الترجمة العربية القديمة « فى طبائع الحيوان البرى والبحرى » :

« وجميع الحيوان الذى له قرون ذو أربعة أرجل ، ما خلا الحيوان الذى يقال إن له قروناً بنوع الاستحالة من الحيات التى تكون فى ناحية البلدة التى تسمى باليونانية (ساس) كما يزعم أهل مصر . وإنما تلك التى تطر (تظهر ؟) قروناً نتوء جاس فى رءوسها شبيه بالقرون »[٤] .

فهذه العبارة التى يذكر بها أرسطو تلك الدعوى تتضمن إنكارا لها .

٦١ – « قال الجاحظ : « وقال صاحب المنطق : الأيائل تصاد بالصفير والغناء . وهى لا تنام ما دامت تسمع ذلك من حاذق الصوت . فيشغلونها بذلك ، ويأتون من خلفها ، فان رأوها مسترخية الآذان وثبوا عليها ، وإن كانت قائمة الأذنين فليس إليها سبيل »[٥] .

---

(١) ج ٤ ، ص ١٥٦ .
(٢) ج ٤ ، ص ١٥٨ .
(٣) v· , p. 118.
(٤) ورقة ٢١ . ولعل اسم المدينة المذكورة فى النص : تيباس ؟
(٥) ج ٤ ، ص ١٩٣ .

ونظير هذا النص فى تاريخ الحيوان لأرسطو يقع فى آخر الفصل السادس من الكتاب السابع : إذ يقول :

« وتصاد الأيائل بالنفخ فى المزمار وبالغناء فيجتمع لذلك صائدان ، أما أحدهما فيقف أمام الحيوان ، يغنى أو يزمر بالمزمار ، دون أن يستتر ، وأما الآخر فيقف وراء الأيّل ليمسكه حين يشير إليه زميله أن قد حانت اللحظة . وما دام الأيّل ناصباً أذنيه فهو يصغى كل الإصغاء ، ولا يكون من الممكن مباغتته، أما حين يرخيهما فهو لم يعد يسمع شيئاً ، فيثبان عليه »[1] .

والنصان يتوافقان — كما نرى — إلى حد غير قليل ، إلا ما كان من بعض التفصيلات فى نص سانتيلير ، دون أن تكون فى نص الجاحظ ، وإلا ما قد يكون من طبيعة الترجمة والنقل .

٦٢ — قال الجاحظ : « وزعم صاحب المنطق أن الرعد الشديد إذا وافق سباحة السمك فى أعلى الماء رمت ببيضها قبل انتهاء الأجل . وربما تم الأجل فتسمع الرعدالشديد فيتعطل عليها أياماً بعد الوقت »[2] .

ولم يتح لى أن أجد هذا القول فى حيوان أرسطو . والذى عرض له أرسطو من هذا القبيل هو تأثير الرعد فى الغنم ، فتسقط صغارها حين تسمع الرعد وهى حامل : وذلك فى الفصل الرابع من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان [3] .

٦٣ — قال الجاحظ — بعد أن حكى حديثاً من أحاديث كعب الأحبار ، ذكر فيه ما عوقبت به الأرض حين شربت دم ابن آدم وأنها لم تشرب بعد دم ابن آدم دم أحد من ولده ولا من غير ولده ، وما استطرد إليه من ذكر بعض الآثار التى ذكر فيها بغض الأرض للدم — :

« وزعم صاحب المنطق أن الأرض لا تشرب الدم ، إلا يسيراً من دماء الإبل خاصة »[4] .

وقد أوردنا هذا النص قبل ، مع نص مثله جاء فى الجزء الثالث من حيوان الجاحظ ، وذكرنا ما يشيران إليه فى كتابى أرسطو : تاريخ الحيوان ، وأعضاء الحيوان ؛ وعلقنا عليه ، واستخلصنا من المقارنة ما أتيح لنا ، وأن كلمة « الإبل » فى هذا النص مصحفة عن كلمة « الأيّل » مفرد الأيائل [5] .

٦٤ — قال الجاحظ : « وزعم صاحب المنطق أن الوزغة والحيات تأكل اللحم والعشب . وزعم أن الحيات أظهر كلباً من

---

(١) v. III , p. 154.

(٢) ج ٤ ، ص ١٩٣ .

(٣) V. III, P. 147.

(٤) ج ٤ ، ص ٢٠١ .

(٥) النص رقم ٢٣ (مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية، المجلد الثامن، ديسمبر سنة ١٩٥٤ص ٨١– ٨٢).

جميع الحيوان ، مع قلة شرب الماء ؛ وأن الأسد ، مع نهمه ، قليل شرب الماء . قال : ولا تضبط الحيات أنفسها إذا شمت ريح السذاب ، وربما اصطيدت به . وإذا أصابوها كذلك وجدوها وقد سكرت. قال: والحيات تبتلع البيض والفراخ والعشب . وزعم أن الحيات تسلخ جلودها فى أول الربيع ، عند خروجها من أعشتها ، وفى أول الخريف . وزعم أن السلخ يبتدئ من ناحية عيونها أولا . قال : ولذلك يظن بعض من يعاينها أنها عمياء . وهى تسلخ من جلودها فى يوم وليلة من الرأس إلى الذنب ، ويصير داخل الجلد هو الخارج ، كما يسلخ الجنين من المشيمة . وكذلك جميع الحيوان المحزز الجسد ، وكل طائر لجناحه غلاف مثل الجعل والدبر . وكذلك السرطان يسلخ أيضاً ، فيضعف عند ذلك عن المشى . وتسلخ جلودها مرارا »[1] .

وهذا النص يتألف — كما نرى — من أشياء كثيرة مختلفة .

فأما الكلام عن الوزغ والحيات فيقع فى صدر الفصل السادس من الكتاب الثامن ، من تاريخ الحيوان ، إذ يقول :

« والحيوانات ذوات الجلد الحرشفى ، مثل الوزغ ، وذوات الأربع الأخرى من هذا النوع ، والثعابين ، تأكل كل شىء ؛ فهى تتغذى باللحم وتأكل أيضاً العشب. وليس هناك أكثر شرها من الثعبان . وكل هذه الحيوانات قليلة الشرب »[2] .

وأما قوله إن الأسد ، مع نهمه ، قليل شرب الماء ، فيقع فى الفصل الذى يلى هذا الفصل ، إذ يقول :

« والأسد من أكلة اللحم . . . وهو يأكل بشره . . . وهو قليل شرب الماء »[3] .

وأما العبارة التى تشير إلى أثر السذاب فى الحيات ، فقد نجد ما يناظرها فى تاريخ الحيوان ، إذا نحن وضعنا كلمة « الشراب » أو « الخمر » موضع كلمة « السذاب » . وذلك فى الفصل نفسه الذى تحدث فيه عن الوزغ والثعابين ، وهو الفصل السادس من الكتاب الثامن ، إذ يقول :

« والثعابين تحب الخمر حباً شديدا ، حتى إنه حين يراد صيد الحيات توضع بين الأشراك آنية أو أصداف فيها خمر . وبذلك تصاب الحيات حين تكون ثملة »[4] .

وكذلك يقع فى هذا الفصل ما يناظر قوله إن الحيات تبتلع البيض والفراخ والعشب . وذلك على هذه الصورة :

---

(١) ج ٤ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٢) v. III , p. 37.

(٣) v. III ,p. 42.

(٤) v. III , p. 38.

« والثعبان يأكل صغار الطير ، وصغار البهائم ، ويبتلع البيض »[1] .

وأما باقى النص الذى يجرى الحديث فيه عن سلخ الحيات جلدها ، فيقع فى الفصل التاسع عشر ، من الكتاب الثامن ، من تاريخ الحيوان ، إذ يقول أرسطو — بعد أن تكلم عن كمون الحيوان ، ثم انتقل إلى الكلام عن تجرده — :

« والحيات تتجرد أيضاً من جلدها القديم فى الربيع والخريف . . . وهى حين تسلخ جلدها ، تبدأ هذا السلخ من ناحية عيونها . ومن لم يعرف ذلك ظن أنها صائرة إلى العمى . ويمتد السلخ من الأعين إلى الرأس التى تظهر بيضاء قبل سائر الجسد . وفى يوم وليلة ينفصل الجلد القديم كله من الرأس إلى الذنب . ويحدث السلخ من الباطن إلى الظاهر . وانسلاخ الثعبان هو كخروج الأجنة من المشيمة . وبمثل ذلك أيضاً يكون تغيير الحشرات لجلودها . وكذلك عند النحل وما يسمى كرى كرى les cri cri ...

وحين يتجرد السرطان فان صدفته تصير رخوة جدا ، ويلاقى فى المشى عنتاً شديدا . وهذا الحيوان لا يتجرد مرة واحدة ، بل مرات عديدة فى السنة »[2] .

نحن من هذا النص من نصوص حيوان الجاحظ إزاء اقتباسات مختلفة جمعها أبو عثمان فى جملة واحدة لما لها من علاقة اعتبرها فيها ، وما بينها من مناسبة لاحظها . وأكبر الظن أنه لم يتحرّ نقلها بلفظها ، ولا مراعاة الدقة فى إيرادها . ولعل ذلك مما يمكن أن يعد سببا من أسباب ما نرى من خلاف بينها وبين الأصل الذى بين أيدينا .

أما الكلام عن أثر «السذاب» فى الحيات فأكبر الظن عندنا أن كلمة «السذاب» محرفة عن « الشراب » بمعنى الخمر ، وهو تصحيف قريب . وبذلك يلتقى النصان هنا . وأحسب أن هذا التصحيف لم يجىء اعتباطا . وإنما هو متأثر بما جاء فى موضع آخر ، عن أرسطو ، من أثر السذاب la rue فى الحيات إذ يقول الجاحظ — وسنرى ذلك بعد إن شاء الله — : « وقيل لى — وقرأت فى كتاب الحيوان — أن ريح السذاب يشتد على الحيات[3] » فذلك فيما نرجح ، هو الأصل فى ذلك التصحيف .

ومن الخلاف الذى نرجح أيضا أنه يرجع إلى تحريف فى النص العربى ، كلمة « العشب » فى قوله : « والحيات تبتلع البيض والفراخ والعشب » ، فظاهر أن العشب ليس مما يبتلع . وموضع العشب فى النص الآخر هو

(١) v.III, p.38.

(٢) v. III, p. 84-85.

(٣) ج ٥ ، ص ٣٦٥ .

صغار البهائم أو ما إلى ذلك . وإذا كنت لا أملك الآن رد هذه الكلمة إلى الأصل الذى حرفت عنه على سبيل القطع أو الترجيح فإنى أذكر كلمة « النَّقَد » بفتحتين ، على أنها مما يحتمل افتراضه فى مثل هذا الموضع .

٦٥ — قال الجاحظ : « قال : وعض السباع ذوات الأربع ، ولدغ الهوام ، يختلف بقدر اختلاف البلدان ، كالذى يبلغنا عن أفاعى الرمل ، وعن جرارات قرى الأهواز ، وعقارب نصيبين ، وثعابين مصر ، وهنديات الخرابات [1]» .

وقد عرض أرسطو لهذا المعنى بما يجعلنا نرجح أن فاعل « قال » فى هذا النص هو « صاحب المنطق » ، وإن كانت الأمثلة والشواهد التى يذكرها مختلفة ، وربما كان المنسوب إلى أرسطو هو صدر العبارة المتضمن للقضية عامة ، أما الشواهد فهى من عند الجاحظ تقريرا لهذه القضية .

وذكر أرسطو لهذا المعنى يقع فى الفصل الثامن والعشرين من الكتاب الثامن ، من تاريخ الحيوان . قال :

«واختلاف الأقطار ينشأ عنه اختلاف كبير فى أنواع عضة الحيوانات ، فالعقارب فى إقليم فاروس ، وفى بعض الأقاليم الأخرى ، ليست بذات خطر ، ولكنها فى جهات أخرى ، وخاصة «كارى» عديدة وكبيرة ، بقدر ما هى مثيرة للفزع ... الخ » [2] .

ومما يؤيد افتراضنا أن الجاحظ يرجع بهذا القول إلى أرسطو هذا النص الذى نذكره بعد ، والذى يقع عقب نصنا هذا ، كما يقع فى الفصل نفسه لدى أرسطو .

٦٦ — قال الجاحظ : « وقال صاحب المنطق : ويكون بالبلدة التى تسمى باليونانية « طبقون » حية صغيرة شديدة اللدغ ، إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك .

ولم أفهم هذا ، ولم كان ذلك .

وإذا أكل بعض ذوات السموم من جسد بعضها ، كانت أردأ ما تكون سما ، مثل العقارب والأفاعى » [3] .

ويقع هذا النص عند أرسطو — كما قلنا — فى الفصل نفسه الذى جاء فيه النص السابق . قال : « وكثيرا ما يخفى نبات السلفيوم silphium ثعبانا صغيرا ، يعالج سم عضته — فيما يقال — بحجر يؤخذ من قبر ملك من الملوك القدماء ، ينقع فى الخمر ، ثم يبادر بشربها ... وجميع الحيوانات السامة تكون

(١) ج ٤ ، ص ٢٢٦ .

(٢) v. III , p. 122.

(٣) ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

عضتها أشد خطرا ، بقدر ما يفترس بعضها بعضا ، كالحية إذا أكلت العقرب [1]» .

والسلفيوم المذكور هنا هو نبات من نباتات ليبيا ، ذكرة تيوفراست Théophsaste خليفة أرسطو ، فى كتابه تاريخ النبات Histoire des plantes ، فى الفصل الثالث من الكتاب السادس منه . وظن المترجم العربى ، فيما نقدر ، أنه اسم بلدة ، وساقه هذا المساق . وعندنا أن كلمة « طبقون » محرفة ، على وجه ما ، عن كلمة « سلفيون » أو « سلفيوم » هذه .

٦٧ ــ قال الجاحظ : « والأيل إذا ألقى قرونه علم أنه قد ألقى سلاحه ، فهو لايظهر وكذلك ان سمن علم أنه يطلب ، فلا يظهر . وكذلك أول ما ينبت قرنه يعرضه للشمس ، ليصلب ويجف ، وإن لدغت الأيل حية أكل السراطين ، فلذلك نظن أن السراطين صالحة للديغ من الناس .

قال : وإذا وضعت أنثى الأيل ولدا أكلت مشيمتها ، فيظن أن المشيمة شىء يتداوى به من علة النفاس [2]» .

ويمكن أن نجد هذه الأقوال فى تاريخ الحيوان لأرسطو ، متفرقة ، فى الفصل السادس من الكتاب السابع منه ، إذ يقول ــ فى سياق حديثه عن الأيل :

« والذكر حين يثقل جرمه ، إذ يصير فى فصل الخريف سمينا ، لا يعود للظهور ، كما أنه يغيّر مأواه ، كأنما يحس أن أخذه بسبب سمنته أصبح أمرا يسيرا . وفى حالة فقده قرنيه يمضى إلى أصعب الأمكنة منالا واهتداء إليها ... ويقال إن الأيائل تحرص على ألا ترى فى الوقت الذى فقدت فيه سلاحها ... وحين يأخذ القرنان فى الكبر فإن الحيوان يتعرض للشمس من أجل انضاجهما وتجفيفهما ... وحين يعض الإيل عنكبوت araignée-phalange ، أو أية حشرة أخرى من هذا القبيل فإنه يأخذ فى التماس بعض الاسكارجو escargots ليأكله . ومثل هذا قد يكون مفيدا للناس أيضا ، وان يكن طعمه مثيرا للتقزز . وحين تضع الأنثى تأكل على الفور ميشمتها ، حتى إنه ليصعب أخذها منها ، لأنها تمسك بها قبل أن تسقط على الأرض . وبذلك اعتبرت المشيمة دواء نافعا [3] » .

ومعظم الخلاف بين هذين النصين يرجع إلى الإيجاز فى النص العربى ، والتفصيل فى النص الآخر .

على أن هناك بعد ذلك ما يرجع إلى الخلاف فى فهم الكلمة اليونانية وتعيين مدلولها ومرادفها ، كالذى نراه فى قول النص العربى

(١) v. III, p. 122-123.

(٢) ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

(٣) v. III, p. 150-154.

الجاحظي : « وإذا لدغت الأيل حية أكل السراطين » ، فإننا نجد النص الآخر يضع كلمة العناكب Araignee-phalange موضع كلمة « الحية » ، كما نجد كلمة الاسكارجو فى مقابل كلمة السراطين العربية . على أن سانتيلير يقول فى حواشيه أن الكلمة اليونانية التى دل عليها بكلمة escargots الفرنسية تدل أيضا على ما يسمى بالفرنسية Crabes . وهذه الكلمة يمكن ، بمدلولها ، أن توضع بإزاء كلمة السراطين العربية .

أما أكل أنثى الايل مشيمتها فقد كان من المواضع التى علق عليها سانتيلير فى حواشيه ، فقال : إن من المحتمل عنده أن هذه الفقرة كانت تعليقا على الهامش . ثم جاء أحد النساخ فاعتبرها من النص وأدخلها فيه . ويضعف هذا الاحتمال وجودها فى النص العربى ، فى نفس السياق الذى نراه فى النص الذى ترجمه سانتيلير .

٦٨ ــ قال الجاحظ : « قال : والدبة إذا هربت دفعت جراءها بين يديها ، وإن خافت على أولادها غيبتها ، وإذا لُحقت صعدت فى الشجر وحملت معها جراءها .

قال : والفهد إذا عراه الداء الذى يقال له (خانق الفهود) أكل العذرة فبرىء منه .

قال : والسباع تشتهى رائحة الفهود ، والفهد يتغيب عنها ، وربما فر بعضها منه فيطمع فى نفسه . فإذا أراده السبع وثب عليه الفهد فأكله .

قال : والتمساح يفتح فاه إذا غمه ما قد تعلق بأسنانه ، حتى يأتى طائر فيأكل ذلك ، فيكون طعاما له وراحة للتمساح :

قال : وأما السلحفاة فإنها إذا أكلت الأفعى أكلت صعترا جبليا . وقد فعلت ذلك مرارا فربما عادت فأكلت منها ثم أكلت من الصعتر ، مرارا كثيرة ، فإذا أكثرت من ذلك هلكت .

قال : وأما ابن عرس فانه إذا قاتل الحية بدأ بأكل السذاب ، لأن رائحة السذاب مخالفة للحية . كما أن سام أبرص لا يدخل بيتا فيه زعفران .

قال : والكلاب إذا كان فى أجوافها دود أكلت سنبل القمح .

قال : ونظن أن ابن عرس يحتال للطير بحيلة الذئب للغنم ، فإنه يذبحها كما يفعل الذئب بالشاة .

قال : وتتقاتل الحيات المشتركة فى الطعم .

وزعم أن القنافذ لا يخفى عليها شىء من جهة الريح وتحولها وهبوبها ، وأنه كان بقسطنطينية رجل يقدم ويعظم لأنه كان يعرف هبوب الريح ويخبرهم بذلك . وإنما كان يعرف الحال فيها بما يرى من هيئة القنافذ »[1] .

(١) ج ٤ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

فها نحن من هذا النص إزاء فقرات مختلفة تتحدث جميعها عن بعض مظاهر الغريزة عند الحيوان، وهدايتها له فى سلوكه. وتقع نظائرها فى الفصل السابع من الكتاب التاسع، من تاريخ الحيوان لأرسطو، على ترتيبها هنا تقريبا. وإن جاءت هنا فى صورة مقتطفات من هذا الفصل، وذلك إذ يقول :

« حين تهرب الدببة أمام الصائد تدفع صغارها أمامها، كما تحملها وقد أخذتها فى فمها. فإذا كانت على وشك أن تؤخذ تسلقت الأشجار ... وإذا اتفق أن ابتلعت الفهدة السم الذى يقال له : (الموت للفهود) فإنها تلتمس عذرة إنسان فتبرئها، فهى دواء لها، وعلى العكس بالنسبة للأسود فهى قاتلة لها. والصيادون يعرفون ذلك جيدا حتى إنهم ليعلقون على شجرة شيئا من العذرة فى وعاء، بحيث تبقى غير بعيد منها، فإنها لا تلبث أن تموت من الجهد الذى تبذله فى قفزها نحو الوعاء مؤملة بلوغه. كما يؤكدون أيضا أنها إذ تعلم أن رائحتها تجتذب بعض الحيوانات الأخرى، فإنها تختبىء لصيدها، حتى إذا اقتربت منها انقضت عليها، ومن بينها الأيائل ... والتمساح حين يفتح فكه تسرع إليه الطير المسماة تروكيل trochiles طائرة، لتنظف له أسنانه، وهى تجد فى ذلك طعاما لها. أما التمساح الذى أراحه هذا الصنيع، فإنه يعرفه لها، فلا ينالها بأذى، فإذا أراد التروكيل أن يخرج حرك التمساح عنقه بطريقة تجنبه أذى العض. والسلحفاة إذا ابتلعت أفعى أكلت صعترا. وقد قرر ذلك على هذه الصورة : لقد كان أحد الناس رأى سلحفاة تفعل ذلك عدة مرات. كلما ابتلعت الصعتر عادت إلى حية أخرى، فاقتلع الصعتر فماتت السلحفاة للتو، إذ حرمت من هذا الدواء.

أما ابن عرس فإنه إذا أراد أن يقاتل ثعبانا بدأ بأكل السذاب الذى يكره الثعبان رائحته ... والكلاب إذا كان فى أجوافها دود تأكل سنبل القمح ... ويظهر ابن عرس ذكاء فى طريقة قتله للطير، فإنه يخنقها كما يخنق الذئب الغنم. ويقاتل ابن عرس خاصة الثعابين الصائدة للفيران، لأنه يغتذى أيضا بالفيران. وكثيرا ما أمكن ملاحظة أن القنافذ تحس تغيرات الرياح، إذا كانت تهب من الشمال أو الجنوب، فمنها ما يغير فتحات الثقوب التى يصنعها لنفسه فى الأرض، ومنها مما يعيش فى دورنا، ما ينتقل من حائط إلى آخر. ويحكى أن شخصا من بيزنطة كان قد لاحظ هذه الغريزة عند القنفذ، فاشتهر بأنه صائب التنبؤ بالجو [1] ».

وإذا كان النظر فى هذين النصين، كل على حدة، يثير التساؤل عما يلابس كلا منهما، فى بعض أجزائه من غموض

(١) v. III, p. 155-159.

واضطراب ، فإن المقارنة بينهما تثير كثيرا من المسائل الناشئة عن أوجه من الخلاف بينهما ، وعما يمكن أن يرجع إليه هذا الخلاف .

من هذا الخلاف ما هو يسير المأتى هيّن الأمر قريب التأويل ، كجعل النص العربي الحديث عن الدب في صيغة المفرد المؤنث (الدبة) ، وجعل النص الآخر الحديث عنه في صغية الجمع (الدببة) ، فالصيغتان متقاربتان في الصورة الخطية تقاربا لا نبعد معه أن تكون كلمة « الدبة » تصحيفا لكلمة « الدببة » . وإن كان من الممكن أن يكون المترجم هو الذى آثر هذه الصيغة.

ومن ذلك تسمية الترجمة العربية بيزنطة وهو الاسم القديم ، باسم القسطنطينية ، وهو الاسم الذى أطلق عليها بعد استيلاء الملك قسطنطين عليها في القرن الرابع ، والذى لا يكاد المسلمون الأوائل يعرفونها إلا به . فأكبر الظن أن ذلك كان من تصرف المترجم .

وهناك مواطن أخرى من الخلاف ليس من اليسير تفسيرها واتخاذ موقف منها إلا أن تجتمع لنا أدوات هذا التفسير ، وهى ليست متاحة لنا الآن .

٦٩ ــ قال الجاحظ : « قال صاحب المنطق : الطير على ضربين : أوابد وقواطع . ومنه ما يأكل اللحم لا يأكل غيره ، وإن لم يكن ذا سلاح ، فأما ذو السلاح فواجب أن يكون طعامه اللحم .
ومن الطير ما يأكل الحبوب لا يعدوها ، ومنه المشترك الطباع ، كالعصفور والدجاج والغراب ، فإنها تأكل النوعين جميعا ، وكطير الماء ، يأكل السمك ويلقط الحب ، ومنه ما يأكل شيئا خاصا ، مثل جنس النحل المعسّل الذى غذاؤه شيء واحد ، وجنس العنكبوت ، فإن طعم النحل المعسل العسل ، والعنكبوت يعيش من صيد الذباب .

ومن الحيوان ما له مسكن ومأوى كالخلد والفأر والنمل والنحل والضب ، ومنه ما لا يتخذ شيئا يرجع إليه كالحيات ، لأن ذكورة الحيات سيارة ، وإناثها إنما تقيم في المكان إلى تمام خروج الفراخ من البيض ، واستغناء الفراخ بأنفسها ، ومنها ما يكون يأوى إلى شقوق الصخور والحيطان والمداخل الضيقة ، مثل سام أبرص .

قال : والحيات تألفها كما تألف العقارب الخنافس ، والعظايا تألف المزابل والخرابات والوزع قريبة من الناس [1] » .

ونرجو أن نوفق بعد إلى ما يناظر هذا النص في حيوان أرسطو .

(١) ج ٤ ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

٧٠ ـ قال الجاحظ ـ فى سياق كلامه عن النعامة ـ وأنها ، مع عظم عظامها وشدة عدوها ، لامخ فيها : « وقال صاحب المنطق : ليس المخ إلا فى المجوفة ، مثل عظم الأسد ، وفى بعض عظامه مخ يسير . وكذلك المخ قليل فى عظام الخنازير ، وليس فى بعضها شيء منه البتة [1] » .

ونظير هذا النص فى تاريخ الحيوان لأرسطو يقع فى الفصل الخامس عشر من الكتاب الثالث ، وذلك إذ يقول :

« وليس فى كل العظام مخ ، فهو لايوجد إلا فى العظام المجوفة ، وحتى هذه لا يوجد فيها دائما . فعظام الأسد قد لا يوجد فيها مطلقا . ولا يوجد فيها إلا قدر يسير جدا . كما زعموا أحيانا ، وكما قيل من قبل ، إن الأسود ليس بها مخ مطلقا . وكذلك عظام الخنازير ، المخ فيها قليل جدا ، وقد رئى منها ما ليس فيها شىء منه [2] » .

والنصان هنا متطابقان إلى حد بعيد ، ولا يكاد يخالف بينهما إلا طبيعة الأسلوب فى كل منهما ، وجنوح أحدهما إلى الإيجاز والقصد ، وجنوح الآخر إلى الإطناب والتشقيق .

محمد طه الحاجرى

---

(١) ج ٤ ، ص ٣٢٧ .

(٢) v. I, p. 300.